

* الفقيه أحمد بن أبي محلي وقضايا عصره (1612-1559)

Ahmed bin Abi Mahali issues of his time (1612-1559)

عبد العزيز بالحيا^{*1} ، حياة قنون²

¹ جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس (الجزائر)، abdelaziz.198332@gmail.com

² جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس (الجزائر)، guenounhayet1@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 تاريخ القبول: 2024/11/17 تاريخ النشر: 2024/12/20

ملخص: يعتبر أحمد بن أبي محلي (967-1021 هـ / 1559-1612 م) من بين العلماء والفقهاء الذين ساهموا بشكل جلي في الحياة الفكرية والحضارية بالجنوب الغربي للجزائر أواخر القرن 10 هـ / 16 م وبداية القرن 11 هـ / 17 م هذه المساهمة تظهر من خلال ما تركه من مؤلفات ومصنفات إذ تجاوزت كتاباته الألف ورقة والتي كانت في طليعتها علاقة العداء مع عبد القادر بن محمد السماحي، وقضية المهدوية التي كان مهووسا بها فقد تطرق في جميع مصنفاته لمسألة المهدي المنتظر وهي القضية التي تمكن من خلالها من القيام بالثورة على السلطة السعدية في مراكش، ومسألة تعاطي الدخان أو ما عرف حينها بتناول عشبة "تَبَع" فقد كان ابن أبي محلي من بين المتعاطين لهذه المادة. كلمات مفتاحية: أحمد بن أبي محلي، الثورة، المهدي المنتظر، التبغ، الإصليت الخريت.

Abstract: Ahmed Ibn Abi Mahalli (967-1021 AH / 1559-1612 AD) is considered among the scientists and jurists who made a clear contribution to the intellectual and civilized life in the southwest of Algeria, at the end of the 10th century AH / 16 AD and the beginning of the 11th century AH / 17 AD. This contribution appears throughout his writings which exceeded thousand papers, in the forefront of which was the relationship of enmity with Abd El Kadir Ibn Mohammed Essmahi, and the issue of Mahdism that he was obsessed with. In all his works, he addressed the issue of the awaited Mahdi, the issue through which he was able to carry out the revolution against the Saadian authority in Marrakesh, and the issue of smoking, or what was known at the time as consuming the "tobacco" herb. Ibn Abi Mahli was among the users of this substance. Through this article, we will try to shed light on these issues and problems that Ahmed bin Abi Mahli addressed in his many writings.

Keywords: Ahmed Ibn Abi Mahalli, Revolution, Al-Mahdi Al-Muntadhar, Tobacco, Al-Aslite Al-Khairit.

* المؤلف المرسل

* خاص بالملتقى الافتراضي

كانت منطقة الجنوب الغربي للجزائر أواخر القرن 10هـ/16م وبداية القرن 11هـ/17م شبه مستقلة نظرا لهامشية المنطقة بالنسبة للمراكز السياسية، فالسلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر كان جل اهتمامها الصراع البحري مع مختلف الأساطيل الأوروبية، لذا لم يكن لها اهتمام كبير بها، أما الدولة السعدية فلم تولي عناية بها على الرغم على أنها منطقة متاخمة لحدودها، كما تعد منطقة الجنوب الغربي للجزائر منطقة هامة، على الرغم من انعزالها على مسرح الأحداث خلال العصر الحديث، نظرا لبعدها عن مركز السلطة فكانت تعيش على هامش المراكز السياسية، مما سمح لزعماء القبائل وشيوخ الزوايا بتسييرها، وحظي سيدي الشيخ بهذه المكانة الأمر الذي أدى بأحمد بن أبي محلي إلى زيارته ثم الإقامة عنده بطلب منه (ابن أبي محلي 3، د ت: 253).

وقد كان لأحمد بن أبي محلي تأثير كبير في منطقة الجنوب الغربي للجزائر بصفة خاصة والمغرب بصفة عامة، من خلال الأدوار السياسية التي لعبها والقضايا الفقهية التي أثارها، فقد كان شخصية طموحة أراد استغلال أوضاع المنطقة البعيدة عن مركز السلطة، والتي كانت تعيش حياة السيبة السياسية إذ لا سلطة تحكما ولا قانون يسيورها، فتقرب من سيدي الشيخ (بالحيا و قنون، 2021: 531) بغية استمالته لتأييده في مشروعه المهدوي الذي هدف من خلاله إلى الإطاحة بالسلطة السعدية والاقتصاص من أبناء أحمد المنصور الذهبي لتخاذلهم في الدفاع عن وحدة المغرب وتواطئهم مع الإسبان. هذا إلى جانب الحراك الفقهي الذي أثاره ابن أبي محلي حول قضية الدخان والتي كُتبت حولها العديد من المصنفات ما بين التحليل والتحريم.

إن القضايا التي سوف نناقشها في هذا المقال تتمحور حول طبيعة ثورة ابن أبي محلي وموقفه من الصراع بين ورثة أحمد المنصور الذهبي على العرش، وثورته المهدوية ومسالة تعاطي مادة التبغ.

وللإجابة عن إشكالية البحث قمنا بتقديم تعريف مختصر لأحمد بن أبي محلي، ثم تحدثنا عن الفكر المهدوي عنده، وعرجنا على ثورته المهدوية وأقواله في القضية، ثم بينا موقفه من مادة "تَبَع" ومراسلاته مع العلماء حولها، بالاعتماد على ما جاء في مصنفاته المخطوطة.

1. نبذة مختصرة عن شخصية ابن أبي محلي (967-1021هـ/1559-1612م):

هو الفقيه أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي محلي السجلماسي الفيلاي المولود بتافيلالت حوالي سنة 967هـ/1559م من أسرة علمية عرفت بعراقتها ومكانتها الاجتماعية بين مختلف قبائل المنطقة (القدوري، 1991: 39)، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه وبزاوية العائلة على يد والده، ثم التحق بمدرسة العطارين بمدينة فاس من أجل إكمال تعلمه على يد مشايخها كما انتسب للتصوف الذي كان مولعا به فتتلمذ على يد محمد بن مبارك الزعري التستاوتي (أنظر التعليق رقم: 01)، الذي لقنه علم التصوف واتخذ ابن أبي محلي من الشيخ الزعري مربيا له، فبعد أن فارقه ظل يزوره من الفينة إلى الأخرى حتى وافاه الأجل (ابن أبي محلي، 1، 2014: 18-19).

استقر ابن أبي محلي ببلدة بني عباس (أنظر التعليق رقم: 02) سنة 1000هـ/1592م (ابن أبي محلي، 1، 2014: 20) ومنها كاتب العلماء والأعيان يحضهم على الاستمسك بالسنة والجهاد ويشيع بينهم أنه المهدي المنتظر (الناصري، 1997: 29)، رافعا نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، التقى مع سيدي الشيخ (أنظر التعليق رقم 03) وتزوج من ابنته ثم فارقه مخلصا (ابن أبي محلي، 1، 2014: 21)، وقد حج مرتين ودون الأحداث التي مر بها في مؤلفاته العديدة والتي نذكر منها: القسطاس المستقيم والإصليت الخريت ومنجنيق الصخور والمهراس وسُم ساعة وتهبيج الأسود وغيرها من المؤلفات وهي ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود.

2. قضية المهدي المنتظر:

1.2 وساوس المهدوية:

اهتم أحمد بن أبي محلي بموضوع المهدوية فقد كان مهووسا بها وتطرق في أغلب مصنفاته بمناسبة أو بدونها إلى "المهدي المنتظر" مبينا آراء علماء الإسلام فيه، داعيا إياه إلى الخروج والقيام بالدور المنوط به ألا وهو نشر القسط والعدل في الأرض، فكتب صفحات وأنشد قصائد ومقطوعات في هذا الصدد (واحيي، 2009: 23).

لقد أسهب في كتابه "الإصليت" في الحديث عن "المهدي المنتظر" حتى زعم أنه لم يسبقه في التفصيل عنه غيره ناهيك عن علماء عصره (حمادي، 1، 2013: 173)، كما فرق بين "مهدي الذات" و"مهدي الصفات"؛ فالأول في نظره هو المهدي المنتظر صاحب عيسى بن مريم، عليه السلام، المبشر به في الأحاديث، والثاني يقصد به إمام الهدى؛ هو من يهدي الناس إلى الرشاد مثل الخليفة الأموي "عمر بن عبد العزيز" الذي قال عنه: «ومن قال إنه عمر بن عبد العزيز من السلف أو الخلف فلا شك أنه إمام مهدي باتفاق الأمة لكن دون شك ليس بصاحب عيسى عليه السلام» (ابن أبي محلي، 2، دت: 34).

كما تطرق في كتابه هذا كذلك إلى الذين ادعوا المهدوية وذكر منهم مؤسس الدولة العبيدية «فقد دعاها ممن ينتسب لبيت الشرف عبيد الله الملقب بالمهدي (...) فخرج مدعيا أنه المهدي المنتظر الفاطمي الأغر فبايعه الناس» (ابن أبي محلي، 2، دت: 32-33)، وأخبرنا عن مهدي الموحدين "المهدي بن تومرت" الذي زعم أنه المهدي المنتظر هو كذلك لكنه يربط ثورته على المرابطين بدعوة شيخه أبي حامد الغزالي الذي دعا عليهم بزوال ملكهم وتمزيقه كما أحرقوا كتابه "الإحياء" وكان تلميذه يسمع فقال على يدي فقال الغزالي وهو كذلك (ابن أبي محلي، 2، دت: 32).

مهد ابن أبي محلي لفكرة المهدي المنتظر وذكر العديد من القرائن التي تدل على قرب زمن خروج المهدي ولمح في العديد منها إلى نفسه نذكر منها:

- ظهور الكوكب المذنب الذي رآه وهو يومئذ بفاس يطلب العلم «وقد كنت أسمع عن ظهور الكوكب ذي الذنب وأنا يومئذ بمدرسة العطارين من حضرة فاس(...) أن الكوكب المذكور من آخر علامات ظهور الإمام أو من علاماته» (ابن أبي محلي2، دت: 61).

- فتح السلطان أحمد المنصور الذهبي بلاد السودان «ذكر بعضهم أيضا أن دخول رايات أبي العباس المنصور في حياته للسودان واستيلائه على سلطانها(...) كل ذلك من إمارات خروج الإمام» (ابن أبي محلي2، دت: 61).

- كثرة الفتن والأوبئة والمجاعات التي أصابت البلاد وتفشي الغلاء كلها دلائل وعلامات ظهور المهدي المنتظر «وكذلك الوباء المتفشي هذه الأعوام وكثرة المرج والغلاء في سائر البلاد» (ابن أبي محلي2، دت: 61).

- الإطناب في الحديث عن محاسن سلاطين الدولة العثمانية وذكر أن الخليفة في زمانه عباسي النسب مثله وأن العثمانيون منفذون لحكمه، وأشار إلى أن المهدي المنتظر يكون من نسل العباس بن عبد المطلب، فكان يمدح سلاطين الدولة العثمانية وكأنه يستميلهم إلى حين الصدع بمشروعه المهدوي حيث هو عباسي النسب (حمادي1، 2013: 203).

- أشار إلى أن شَيْخ شَيْخِهِ "أبا عمرو المراكشي" لما سئل عن المهدي المنتظر قال: «إنه الآن صبي» (ابن أبي محلي2، دت: 61)، فهذه إشارة أولها ابن أبي محلي على أنه هو المهدي صاحب الزمان (حمادي1، 2013: 182-183).

هذه بعض الدلائل والعلامات التي يذكرها ابن أبي محلي في كتابه "الإصليت الخريت" والتي يلمح في أغلبها على أنه هو المهدي المنتظر، قبل أن يصرح بالمهدوية في كتابه "تهيج الأسود السود" كما سوف نبينه عند الحديث عن ثورته.

تحدثت العديد من المصادر المغربية عن ابن أبي محلي وذهبت إلى ادعائه للمهدوية منها ما كتبه "اليوسي": «وممن ابتلى بهذا قريبا أحمد بن عبد الله بن أبي محلي وكان صاحب ابن المبارك التستاوتي في الطريق حتى حصل له نوع من الذوق (...) ثم نزغت به هذه النزغة» (اليوسي، 2006: 261) في إشارة إلى المهدوية، ثم يؤكد على فكرته حين يقول متحدثا عن ثورته: «ولم ينتبه إلى أن ذهب لبلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر وأنه بصدد الجهاد فاستخف بقلوب العوام واتبعوه» (اليوسي، 2006: 262).

هذه الفكرة التي يطرحها اليوسي تدل على ادعاء ابن أبي محلي للمهدوية، وقد صدع قبله صاحبه أحمد التواتي بهذا الأمر عندما كتب رسالته "مقامة التحلي والتخلي عن صحبة ابن أبي محلي" والتي جاء فيها: «كان الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بومحلي في أول أمره فقيها صرفا ثم إنه انتحل طريق التصوف مدة حتى وقع على بعض الأحوال الربانية (...) ولما سمعت بذلك ذهبت إليه وجلست عنده إلى أن وجدته يشير إلى نفسه بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث فتركته وراءه ونبذته بالعراء» (الإفراني، 1998: 299).

إن رسالة أحمد التواتي تؤكد على ادعاء أحمد بن أبي محلي للمهدوية كيف لا وهو الذي عايشه عن قرب وسمع منه فلما وجده يشير إلى نفسه بأنه المهدي المنتظر فارقه وتركه وكتب هذه الرسالة التي ذكرتها مصادر التراجم والسير مثل اليوسي في محاضراته والإفراني في نزته وغيرهما، لكننا للأسف الشديد لم نعثر عليها وأغلب الظن أنها من عداد المفقود، فلو عثرنا عليها لأعطينا إجابات عن العديد من التساؤلات التي نطرحها.

ومن خلال هذا نخلص إلى أن ابن أبي محلي استغل مكانته بين الناس حيث كان فقيها صرفا وانتحل طريق التصوف فلما ذاع صيته في الآفاق استغل حب الناس له وسذاجة الأغلبية منهم وأشاع بينهم أنه المهدي المنتظر من أجل تحقيق طموحه السياسي والتريع سلطانا على عرش مراكش، خاصة بعد المشاكل الداخلية التي عرفت الدولة السعدية بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي والنزاعات التي نشبت بين الإخوة من

أجل العرش، والتي وجد فيها ابن أبي محلي الفرصة للإعلان عن مشروعه المهدي خاصة وأن وساوس المهدوية كانت تراوده منذ صغره، فقد كان مهوسا بالمهدي المنتظر، الأمر الذي ساهم في ادعائه للمهدوية والقيام بثورة ضد سلاطين الدولة السعدية بغية نشر العدل والقسط في الأرض بعدما امتلأت بالظلم والجور.

2.2 ثورة أحمد بن أبي محلي:

قبل الحديث عن ثورة ابن أبي محلي لابد من الإشارة إلى الوضع العام للدولة السعدية قبيل ثورته ولطبيعة العلاقة بينها وبين العثمانيين في الجزائر وبينها وبين الإسبان الراغبين في احتلال المزيد من الأراضي المغربية خاصة وأن وهران خضعت لسيطرتهم منذ القرن 16م.

اتسمت العلاقات الجزائرية المغربية بالتوتر والعداء نظرا للأطماع من الطرفين فقد كان هم العثمانيين في الجزائر السيطرة على المغرب واستكمال وحدة العالم العربي والإسلامي تحت راية الخليفة العثماني، أما سلاطين الدولة السعدية فقد كان شغلهم الشاغل التوسع على حساب الأراضي الجزائرية وزيادة نفوذهم في الناحية الشرقية من بلادهم، لذا اصطدم الطرفان في العديد من المرات، وبعد اعتلاء أحمد المنصور الذهبي (1578-1603م) عرش الدولة السعدية عمل على توسيع نفوذها من خلال ضمه لبلاد السودان، وفور مبايعته بادر إلى إرسال سفارة إلى الجزائر وأخرى إلى القسطنطينية لإعلام السلطان مراد الثالث (1574-1595م) بتوليته العرش، وقد أرسل السلطان العثماني بدوره وفدا وهدايا لتهنئة أحمد المنصور ورسالة طلب منه فيها منح شمال المغرب لأخيه إسماعيل ومساعدته في تحرير وهران ودعوته للإقرار بالسيادة العثمانية، لكن أحمد المنصور لم يولي هذه الرسالة اهتماما من خلال التقرب من الإسبان بغية التعاون معهم ضد العثمانيين (بن خروف، 2016: 254-256).

هذا هو الوضع العام الذي كانت عليه البلاد قبيل ثورة ابن أبي محلي الذي اشتغل بقضايا عصره، من خلال تحريضه لقبائل بني عامر على محاربة الإسبان وتحرير مدينة

وهران والإشادة بدور العثمانيين في هذا الأمر بناء على الرسالة التي بعث بها في هذا الصدد، والتي يذكرها في كتابه الإصلييت وقد تضمنت رسالة نثرية وقصيدتين شعريتين؛ إحداهما ميمية تتكون من واحد وأربعين بيتا خاطب بها العثمانيين مستهزئا همهم في تحرير وهران ومحاربة الإسبان مطلعها من بحر الطويل: (ابن أبي محلي2، دت:53).

وَمَنْ مُبْلِغٍ أَيْضًا مُلُوكَ الْأَقَالِمِ وَكُلَّ رَئِيسٍ مِنْ رُؤُوسِ الْعَمَائِمِ
وَكُلَّ هُمَامٍ مَائِلٍ فِي حَمَائِلِ عَلَى مَثْنٍ جَارٍ سَابِقٍ فِي الْعَزَائِمِ

أما الأخرى فتتكون من ست وثلاثين بيتا وجهها إلى قبائل بني عامر يحظهم على الجهاد ضد النصارى مطلعها من بحر الطويل كذلك: (ابن أبي محلي2، دت:57).

فَمَنْ مُبْلِغٍ عَنِّي قِبَائِلَ عَامِرٍ وَلَا سِيَمًا مَنْ قَدْ ثَوَى تَحْتَ كَافِرٍ
وَكُلَّ كَوِّيٍّ مِنْ صَنَادِيدِ رَاشِدٍ بَتِيحَانَهَا مَعَ رَأْسِهَا عَبْدَ الْقَادِرِ.

كانت منطقة الجنوب الغربي للجزائر شبه مستقلة خضعت لنفوذ شيوخ الزوايا وزعماء القبائل نظرا لبعدها عن سلطة القرار، فالعثمانيون في الجزائر لم يولوا اهتماما للمناطق البعيدة نسبيا عن البحر، أما السعديون في مراكش فرغم سيطرتهم على صحراء الجزائر بعد حملة أحمد المنصور الذهبي إلا أن المنطقة ظلت بعيدة عن سلطتهم السياسية.

استغل ابن أبي محلي الظروف التي كانت تمر بها الدولة السعدية بالفوضى والإضطرابات التي هزت أركان الدولة بعد وفاة أحمد المنصور (986-1012هـ/1578-1603م) والصراع بين ورثة العرش على الحكم ساهم في ظهور العديد من الطامعين في السلطة، فقد اتخذ من تسليم مدينة العرائش (أنظر التعليق رقم 04) للإسبان ذريعة لتأليب الناس على السلطة السعدية، وإعلان ثورته باسم الجهاد ورد الإسبان وفي نفس الوقت محاربة السعديين ومن يقف إلى جانبهم لتخاذلهم وتقاعسهم عن الدفاع عن البلاد الإسلامية بل فضل أبناء أحمد المنصور الذهبي التحالف مع الإسبان ضد بعضهم البعض (حمادي2، 2013: 123).

يندرج مشروع أحمد بن أبي محلي ضمن المنظومة الموروثة لأنه يعتقد أن الهزائم المتتالية ناتجة عن غيبة الحق وطغيان الظلم، فلجأ إلى تبرير إرادته وخطواته بزمان النبوة (واحيجي، 2009: 39) فكان ينعت أصحابه: «بأنهم أحسن من أصحاب النبي لأنهم يناصرون الحق في زمن الباطل أما أصحاب النبي فإنهم ناصروه في زمن الحق» (الإفراني، 1998: 301).

ضمن هذا المناخ المليئ بالفتن تنهياً للأسباب الداعية لتقديم الأطروحة المهدوية التي بها تتحقق وحدة السلطة والإمامة والخلافة والعدل الاجتماعي، إن تعدد السلاطين وتطاحنهم حول الحكم أوجب القيام عليهم بحيث لا يحل للأمة البقاء بلا إمام عادل قادر على إنشاء سلطة موحدة، فأبناء أحمد المنصور أفسدوا البلاد وشربوا الخمر وتعاطوا الزنا وكثر الظلم والجور والأكثر من ذلك تخلوا عن الجهاد، هذه الحالة التي كانت عليها البلاد هي التي دفعت أحمد بن أبي محلي إلى إعلان مشروعه المهدوي الذي كان يطمح من خلاله إلى ملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً (واحيجي، 2009: 44).

بعد تسليم العرائش من قبل الأمير "المأمون بن المنصور" للإسبان بتاريخ 04 رمضان 1019هـ / 20 نوفمبر 1610م (بن معمر، 2003: 11) ثارت ثائرة ابن أبي محلي وأعلن الجهاد ودعا إلى خلع سلطة أبناء أحمد المنصور، وصَرَخَ بمهدويته من خلال رسالته "تهيج الأسود السود من العرب والبربر إلى أهل المدر والوبر والبحر والبر" فقد خاطب الناس وحثهم على الخروج معه فكأنكم بصاحب وقتكم يصول وهو يقول: (ابن أبي محلي، 3، دت: 06)

وَكُلَّ صَليْبٍ فِي جُيُودِ الْكَوَافِرِ
وَشَمْسُ الْهُدَى تَعْلُو عَلَى كُلِّ نَائِرٍ
لِتَذَكِّرَ نَاسِ عَهْدِهِ فِي الْمَنَابِرِ
نُفُوسًا عَلَى الْأَهْوَاءِ وَاللَّهِ نَاصِرِي

فَمَنْ مُبْلِغُ أَهْلِ الْهَوَى وَالْمَنَاكِرِ
فَإِنَّ بَنُودَ اللَّهِ أَصْبَحَ نَشْرُهَا
وإنَّ إِمَامَ الْوَقْتِ قَدْ قَامَ خَاطِبًا
وَإِنِّي أَنَا الْمَهْدِيُّ أَحْمَدُ فَاطِمٌ

هذه الرسالة تدل على ادعاء أحمد بن أبي محلي المهدوية وتصريحه بأنه إمام الوقت والمهدي الفاطمي وفيها دلالة قاطعة على أنه أشار إلى نفسه بأنه المهدي المنتظر.

خرج ابن أبي محلي على رأس جيشه من بني عباس سنة 1020هـ / 1611م ودخل سجلماسة فهزم عامل السلطان زيدان عليها "الحاج المير" رغم تفوق جيشه عدة وعتادا، وأُشيع بين الناس أن الرصاص يقع على أصحابه باردا ولا يضرهم مما زاد من عزيمتهم، ولما دخل المدينة أظهر العدل وغير المناكر وقدمت عليه الوفود لتهنئته من الراشدية وتلمسان، ثم زحف على ناحية درعة فهزم الجيش الذي أرسله السلطان زيدان بقيادة أخيه، فاستولى عليها وضرب العملة باسمه (خورخي، 1997: 137).

ثم اتجه ناحية عاصمة السعديين مراكش فهزم جيش السلطان زيدان ونودي به سلطانا على العرش، بتاريخ 19 ربيع الأول 1021هـ / 20 ماي 1612م (خورخي، 1997: 139)، لكن السلطان المخلوع استنجد بأبي زكريا يحيى بن عبد الله الحاحي (أنظر التعليق رقم 05)، الذي زحف بجيشه المكون من عدة قبائل يقصد مراكش، وإلتقى الطرفان قرب جبل "جليز" فدارت بينهما معركة أسفرت عن مقتل ابن أبي محلي وتفريق جمعه سنة 1021هـ / 1612م، وبهذا زالت دولته، وعاد السلطان زيدان لعرشه من جديد (الإفراني، 1998: 306-307)، فرغم مقتل ابن أبي محلي إلا أن أنصاره زعموا أنه لم يمت وظلوا ينتظرون عودته للانتقام من أعدائه، وهذا من جراء تأثير الفكر المهدوي عليهم، فقد كانوا يعتقدون أنه المهدي المنتظر.

غلبت وساوس المهدوية على ابن أبي محلي وقد استغل الظروف العامة التي عرفها المغرب الأقصى والمتمثلة في الفوضى والإضطرابات والصراع بين ورثة أحمد المنصور الذهبي على العرش بعد وفاته سنة 1012هـ / 1603م، فثار عليهم وأعلن نفسه سلطانا على العرش وقد كان لتسليم المأمون بن المنصور مدينة العرائش للإسبان دور في التفاف الناس حول ابن أبي محلي من أجل تحرير المدينة ورد العدوان عليها، لكن الباحث في هذه

الحقبة المهمة من تاريخ المغرب الأقصى يلاحظ أن ابن أبي محلي لم يحارب الإسبان ولم يحرر مدينة العرائش منهم فقد توجه لسجلماسة فاستولى عليها ثم سيطر على مراكش ونصب نفسه سلطانا على البلاد، دون أن يكلف نفسه عناء الدفاع عن ثغورها وسواحلها التي احتلها الإسبان.

2. مسألة تعاطي الدخان:

1.2 دخول التبغ بلاد المغرب:

التبغ نبات معروف عند قدماء الهند والفرس بأسماء مختلفة واستعملوه في علاج الجروح وأغراض طبية متعددة، وعنهم أخذه العرب وذكروه في كتبهم الطبية باسم "شجر القمر"، وأول من تحدث عن تدخين التبغ "كريستوف كولومبس" بعد اكتشاف العالم الجديد 898هـ/1492م، وبعدها انتشر في العالم القديم.

دخلت مادة التبغ إلى إفريقيا السوداء عن طريق الأوربيين، ووصلت إلى "تنبكتو" في مستهل القرن 11هـ/ أواخر القرن 16م (حجي، 1، 1976: 246)، ومن ثم حملها السودانيون الذين رافقوا الفيلة إلى مراكش عامي 1005-1006هـ/1597-1598م، ثم دخلوا بها إلى فاس مع الفيلة أيضا عام 1007هـ/1599م (الناصري، 1997: 126).

انتشر التدخين بسرعة في المغرب وأخذ الناس يتعاطونه في مجالس اللهو والقيان، ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت للتبغ أسواق رائجة وكثرت تجارته، واختلف العلماء والصوفية في مسألة شرب الدخان مما أدى بالسلطان أحمد المنصور استفتاء العلماء فيه، فأفتاه بعضهم بتحريمه ووجوب إتلافه، فأمر بانتزاع التبغ من باعته بفاس وكندس أكواما منه في الديوان وأحرقها على رؤوس الأشهاد عام 1011هـ/1602م (حجي، 1، 1976: 247).

وفي غمرة الفتن التي أعقبت وفاة أحمد المنصور تجدد رواج التبغ وانتشر أكثر مما كان خاصة في الصحراء، وقد كان أحمد بن أبي محلي من بين المتعاطين لهذه المادة وقد

أفتى بحليتها وناقش آراء القائلين بتحريمها، وذهبت بعض الدراسات إلى أنه أول من أدخلها إلى مصر إلا أنه لما وصل مصري رحلته الحجية الثانية 1013هـ/1604م، وجد نص فتوى في بلاد "فزان" تحرم استعمالها، فهذا النص الذي ذكره ابن أبي محلي يدل على انتشار مادة التبغ قبل حجة أحمد بن أبي محلي (حمادي2، 2013: 08-09)، كما سيأتي بيانه.

2.2 موقف أحمد بن أبي محلي من التبغ:

كان ابن أبي محلي يتعاطى الدخان لا يرى حرجا فيه لذا أثار في مصر وفي شمال إفريقيا والسودان ضجة بالقاء أسئلة يذكر فيها منافع التبغ عن تجربة محاولا أن يدفع بأكبر عدد من العلماء إلى القول بحليته، ولم يكن استعماله للدخان عن هوى نفس كغيره من السفلة ورعاع الناس، بل عن حكم شرعي إذ لم يرفيه ما يوجب التحريم وإنما غاية كل ما فيه أنه دخان نبات طاهر وصل الجوف ونفع من بعض الأسقام (حمادي2، 2013: 12).

وقد عثر ابن أبي محلي في طريق حجته على نص فتوى تحرم الدخان ويخبرنا أن السلطان العثماني مراد الثالث كان قد منع الناس من استخدامه والتجارة فيه، «لما وردت من فزان مشرقا وقد سألتني بواسطة سلطانها يومئذ أيده الله بتوقيفه عن حكم تَبَغ المشهورة، للنزاع في أوانه وقد منع الناس من استعمالها وبيعها» (ابن أبي محلي2، دت: 319-320)، لكن ابن أبي محلي ذكر منافع مادة تَبَغ واستغرب لتحريمها، لذا ترك السلطان العثماني الناس على اختيارهم، فأصبح الأمر مباحا ونزل السلطان عند رأي ابن أبي محلي، «ثم إن السلطان المذكور (...) ترك الناس وما يريدون من تناولها أو طرحها» (ابن أبي محلي2، دت: 322).

أثار ابن أبي محلي في كتابه "الإصليت" مسألة التدخين وعقد لها بحثا وافيا سماه "الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الإشارة الشجرية"، بين فيه كل المتعلقات بالمسألة

وكانه يريد به جر المفتي إلى ما يشتهيهِ المستفتي، وبعث بها إلى شيخه المصري "سالم السنهوري" لكن الأجل عاجله فتوفي قبل الرد على سؤال ابن أبي محلي، والذي كان قد توقف عن شرب الدخان إلى حين التأكد من تحريمها (حمادي2، 2013: 13-14) «ثم أمسكت عن تناولها حتى ألقاه» (ابن أبي محلي2، دت: 322).

تلقى ابن أبي محلي عدة ردود على رسالته حول الدخان تبيح استعماله ولا ترى حرجا في تناوله ومنها الفتوى التي أصدرها قاضي درعة "أحمد بن محمد البوسعيدي"، والتي جاء فيها: «حكم دخان الشجرة المباركة المسماة تبغ(...) ودخانها فيه منافع ظاهرة بدليل العيان، منها أنه يهضم الطعام وهو أعظم المنافع ومنها إطفاء السموم» (ابن أبي محلي2، دت: 358).

كتب العديد من العلماء مصنفات حول الدخان تمحورت بين التحليل والتحريم نذكر منها: "كتاب نصيحة الإخوان باجتنب الدخان" الذي ألفه إبراهيم بن حسن اللقاني المالكي الأزهري (ت1041هـ/1631م) والذي يقول عنه الأستاذ عبد الله حمادي الإدريسي أنه من بين مشايخ ابن أبي محلي في علم النحو (حمادي1، 2013: 46)، وكان من بين المنكرين على ابن أبي محلي وقد حمّله مسؤولية إدخال الدخان إلى بلاد مصر حين يقول: «ففي أول شيوعه (يقصد الدخان) بمصر دخل به رجل من تافيلالت من بلاد المغرب يقال له أحمد بن عبد الله (...) فسأل عنه شيخنا وقدوتنا العلامة سالم السنهوري فأفتاه بالتحريم» (اللقاني، دت: 57). وكان الباعث لتأليف هذا الكتاب الرد على الرسالة التي كتبها الأجهوري المالكي وقد أحل فيها تعاطي الدخان كما سوف نبينه لاحقا، ومن العلماء الذين حرموا التدخين رسالة عبد الكريم الفكون التي سماها "محدد السنان في نحور أصحاب الدخان" فقد حرم من خلالها الدخان حين يقول: «الدخان خبيث الرائحة وكل ما كان خبيث الرائحة طلب اجتنابه» (بوخلوة ، 2009: 113). وقد ذكر الفكون آراء العلماء حول الدخان فتنكر لمن أباح تعاطيه وانتصر لمن حرم تناوله (سعد الله 2، 1986:

(157)، ونظرا لأهمية هذا كتاب عبد الكريم الفكون فقد اقتبس منه أبو سالم العياشي ملخصا في رحلته ماء الموائد، «ومن تأليفه رضي الله عنه جزء في تحريم الدخان سماه محدد السنان» (العياشي، 2006: 521). إضافة إلى الشيخ سالم السنهوري حين أجاب عن سؤال حول الدخان يذكره ابن أبي محلي في كتابه "الإصليت" يقول فيه: «لا يجوز تعاطيها ولا زراعتها ويجب على والي الأمر المنع منها ومن التجرفها» (ابن أبي محلي، 2، دت: 338-339).

وفي المقابل أحل بعض العلماء شرب الدخان مثل: عبد الرحمان الأجهوري (ت 1066هـ/1655م) الذي كتب رسالة في منافعه سماها "غاية التبيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان" والتي يقول فيها: «قد تكرر السؤال عن شرب الدخان الحادث في قريب الزمان فقد كان تكرر مني الجواب منذ سنتين بألفاظ مختلفة محصلها أن شرب ما لا يغيب العقل منه حلال لذاته بلا ارتياب ثم إنه خفي ذلك على بعض الطلاب» (الأجهوري، دت: 02)، ثم يسترسل حين يقول: «شرب الدخان المذكور ليس مما يغيب العقل أصلا وليس بنجس وما كان كذلك لا يحرم استعماله لذاته بل لما يعرض له ضرر ونحوه فمن لم يضره لم يحرم عليه ومن ضره بإخبار عارف يوثق به أو بتجربة في نفسه حرم عليه» (الأجهوري، دت: 04-05)، ويذكر الأجهوري أن الدخان من الأمور التي وقع حولها خلاف لأنها من النوازل ولم يرد فيها نص شرعي إلا أنه يقول بحليته ولا يرى حرجا في تناوله حين يقول: «وقد جرى الخلاف في الأشياء التي لم يرد في الشرع حكمها والمرجع منه تحريم المضار دون غيرها (...) فيجوز استعماله لمن لا يغيب عقله كاستعمال الأفيون لمن لا يغيب عقله، وهذا لخلاف الأمر بين القلة والكثرة فقد يغيب عقل شخص ولا يغيب عقل آخر وقد يغيب من استعمال الكثير دون القليل فلا يسع عاقل أن يقول إنه حرام لذاته مطلقا إلا إذا كان جاهلا بكلام أهل المذهب» (الأجهوري، دت: 05).

ونقل الشيخ الحسن اليوسي في المحاضرات عن الأمير محمد الحاج الدلائى الذي إلتقى مع الأجهوري بالقاهرة خلال رحلته الحجازية ما صورته: «بتنا عند الشيخ علي الأجهوري برسم زيارة فبات ليلة على النظر في كتب العلم، وهو يشرب الدخان» (اليوسي، 2006: 181-182) فكلام اليوسي هذا يدل ويؤكد تعاطي بعض العلماء للدخان.

هذا جل ما كان في شأن هذه المادة والتي كان ابن أبي محلي من بين المتعاطين لها لا يرى حرجا في تناولها بل أسهب في ذكر منافعها، وبعد أن عثر على فتوى شيخه سالم السهري حولها أعرض عنها وتوقف عن تناولها، قضية الدخان من النوازل التي شغلت العلماء والفقهاء فقد كتبت حولها عدة رسائل ومصنفات بين التحليل والتحريم.

خاتمة:

يعد أحمد بن أبي محلي من بين الشخصيات التي أثارت جدلا واسعا بين العلماء بشكل خاص وعامة الناس بشكل عام، وذلك من خلال القضايا والإشكالات التي خاضها وناقشها في مختلف كتاباته ومن خلال العناوين التي اختارها لكتبه مثل: "الإصليت" و"المنجنيق" و"المهراس" وغيرها، فكل منها حملت مصطلحات ثورية وهو ما انعكس على شخصيته فيما بعد بعدما أعلن الثورة على السلطة السعدية.

كانت وساوس المهدوية تراود ابن أبي محلي منذ الصغر فنَظَرَ للفكر المهدوي في كتبه العديدة، ثم استغل الظروف المناسبة ليعلن عن مشروعه المهدوي الذي طمح من خلاله إلى تحقيق حلمه الذي طالما راوده وهو التربع سلطانا على العرش.

انتقل ابن أبي محلي من التلميح إلى التصريح حيث وصف نفسه بصاحب الوقت والإمام الفاطمي، في إشارة إلى انتحاله لشخصية المهدي المنتظر بعدما استند إلى عدة روايات تدل على أنه هو، وذلك من خلال موافقة اسمه اسم الرسول، صلى الله عليه

وسلم، فهو أحمد بن عبد الله بن أبي محلي، وراح إلى أن المهدي المنتظر يخرج من بلاد المغرب ولمح إلى إمكانية خروج المهدي المنتظر من البيت العباسي في إشارة إلى نفسه.

استغل ابن أبي محلي الظروف العامة التي كان يمر بها المغرب من جراء الفتن والقلق التي أعقبت وفاة أحمد المنصور وتطاحن أبنائه على الحكم، واتخذ من تسليم مدينة العرائش للإسبان ذريعة لإعلان الثورة على سلاطين الدولة السعدية، فحركته تدخل ضمن حركات الطامعين في الحكم وإن كانت تختلف عن بقية الحركات من خلال مشروعها المهدوي.

تمكن ابن أبي محلي من التأثير على أصحابه فقد ناصروه وأيدوه وقاتلوا معه بضراوة، كما أن العديد منهم لم يصدق مقتله بل ظلوا ينتظرون عودته، وهذا من تأثير الفكر المهدوي عليهم خاصة الشيعي منه.

كان ابن أبي محلي من بين المتعاطين لمادة "تَبَغْ" والتي عرفت رواجاً كبيراً في المغرب خاصة بعد الفوضى التي عقت وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي، ولم يكن يتعاطاها عن هوى نفس كغيره من الناس، بل عن حكم شرعي إذ لم يكن يرى فيها ما يوجب التحريم أو الكراهية، وبعدها اقتنع بفتوى تحرمها توقف عن تناولها، وألف رسالة فيها وأثار جدالاً علمياً حولها.

تحفّي مؤلفات أحمد بن أبي محلي بالعديد من القضايا التي أثارها وناقشها لكنها تحتاج الآن إلى من ينفذ الغبار عنها من خلال الدراسة والتحقيق لمختلف الكتب التي خلفها والتي لا يزال أغلبها مخطوطاً تنتظر التفاتة من الدارسين والباحثين.

التعليقات:

- (1) محمد بن المبارك الزعري التاستاوتي: هو أبو عبد الله محمد بن المبارك من المشايخ الأقطاب في التصوف تتلمذ على يده ابن أبي محلي لمدة ثلاث سنوات توفي سنة 1006هـ/1598م (حمادي1، 2013: 51).
- (2) بني عباس هي إحدى قرى وادي الساوره وهي عبارة عن ثلاث قرى اتخذها ابن أبي محلي مقراً لإقامته بل داراً لهجرته (حمادي1، 2013: 89).

- (3) مدينة العرائش: مدينة مغربية ساحلية تقع في شمال المغرب على المحيط الأطلسي، وقعت تحت الإسبانية سنة 1610م بعد ما سلمها الأمير المأمون للإسبان (بن معمّر، 2003: 11).
- (4) سيدي الشيخ: هو عبد القادر بن محمد السماحي ت1616م صاحب زاوية ومؤسس طريقة صوفية كانت له مراسلات مع السلطان السعدي المولى زيدان، كما عرف بطريقته الصوفية الشاذلية وهمة صاحب الياقوتة وهي قصيدة في التصوف (بالحيا و قنون، 2021: 522).
- (5) يحيى الحاحي: هو أحد الأدباء والأمرء امتاز بالحديث والرواية والشعر، تمكن من القضاء على ثورة ابن أبي محلي وأعاد السلطان زيدان إلى عرشه توفي سنة 1035هـ/1626م (حجي، 1978، ص. 563).

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأجهوري، عبد الرحمان. (د ت). مخطوطة غاية البيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان. الرياض: جامعة الملك سعود.
2. ابن أبي محلي1، أحمد. (2014). القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من السقيم. تحقيق محمد محجوبي. أدرار: دار الكلمة.
3. ابن أبي محلي2، أحمد. (د ت). مخطوطة الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت. القاهرة: دار الكتب المصرية.
4. ابن أبي محلي3، أحمد. (د ت). مخطوطة تهيج الأسود السود من العرب والبربر إلى أهل المدر والوبر والبحر والبر. تمنطيط: خزنة سيدي أحمد ديدي البكرية.
5. الإفراني، محمد الصغير. (1998). نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (الإصدار 01). تحقيق عبد اللطيف الشاذلي. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
6. بالحيا، عبد العزيز. و قنون، حياة. (2021). علاقة أحمد بن أبي محلي بعبد القادر بن محمد السماحي، (المجلد 09-03). بلعباس: مجلة آفاق فكرية.
7. بن خروف، عمار. (2016). العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب (المجلد 1) تيزي وزو: دار الأمل للنشر والتوزيع.
8. بن معمّر، محمد. (2003). قضية العرائش بين المطامع السياسية وضغوط العلماء (1019هـ/1610م) (المجلد 19-20). وهران: مجلة إنسانيات.
9. بوخلوة، حسين. (2009). عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره (988- 1073هـ) /1580-1663م). رسالة ماجستير. وهران، جامعة وهران.
10. حجي، محمد. (1978). الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين (المجلد 02). المغرب: مطبعة فضالة.
11. حمادي1، عبد الله الإدريسي. (2013). السلطان السجماسي الفيه الصوفي المفترى عليه أحمد بن أبي محلي مهدي وادي الساور (الإصدار 01، المجلد 01). الجزائر: دار بوسعادة للنشر والتوزيع.
12. حمادي2، عبد الله الإدريسي. (2013). السلطان السجماسي الفيه الصوفي المفترى عليه أحمد بن أبي محلي مهدي وادي الساور (الإصدار 01، المجلد 02). الجزائر: دار بوسعادة للنشر والتوزيع.
13. خورخي، دي هنين. (1997). وصف الممالك المغربية (1603-1613) مذكرات خورخي دي هنين. ترجمة عبد الواحد أكميز. الرباط. المغرب: منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

14. سعد الله، أبو القاسم. (1986). شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
15. القدوري، عبد المجيد. (1991). ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت. الرباط: مطابع منشورات عكاظ.
16. اللقاني، إبراهيم. (دت). كتاب نصيحة الإخوان باجتنب الدخان. تحقيق أحمد محمود آل محمود. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية.
17. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. (1997). كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب.
18. واحيحي سعيد. (2009). مهدوية ابن أبي محلي الفيلالي ومخطوطه "تقييد في التعريف بسجلماسة". الرباط: ردمك.
19. اليوسي الحسن. (2006). المحاضرات في الأدب واللغة (المجلد 01). تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال. بيروت: دار الغرب الإسلامي.